« الا بذكر الله تطمئن القلوب »

للاستاذ الكبير عبد الوهاب خلاف

سعادة الانسان فى هذه الحياة فى اطمئنان قلبه ، وراحة باله ، واستقرار خواطره ، وقد أرشد الله عباده فى كلمة موجزة حكيمة الى الوسيلة التى تحقق لهم هذه السعادة ، وتقيهم من عذاب القلق والاضطراب ، وآلام الجزع والهلع ، وشقاء الشك والارتياب ، فقال جل ثناؤه وهو أصدق القائلين : « **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » .

وذكر الله الذى تطمئن به القلوب ليس هو مجرد ترديد اللسان لاسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، وانما هو تذكر الوهيته وعظمته . واستشعار رأفته ورحمته وقهره وعزته ، واستحضار حكمته فى سننه وعدالته فى قضائه وقدره .

فمن راض نفسه على أن يتذكر ربه فى جميع حالاته فى سرائه وضرائه ، وفى شدته ورخائه وفى صحته وسقمه ، وفى طاعته ومعصيته ، أسند كل أمر الى مصدره ، واطمأن الى حكمة الله فيما نزل به ، فسكن قلبه واستراح من آلهم والحزن على ما فاته . ومن الزهو والبطر بما ناله ، وأمن متاعب القلق والاضطراب .

فاذا ابتلى بفقد عزيز عليه أو بكارثة نزلت به وتذكر ربه وأن كل ما يقع انما هو مقتضى ارادته ، ونفاذ لحكمه وأنه لا راد لما أراده ، ولا معقب لحكمه ، اطمأن قلبه وسكن الى ما قضى به ربه وسلم واستسلم ولم يجد فى صدره حرجا مما أراد الله ، ولا اعتراضا على ما حكم به الله ، وفى هذا الاطمئنان عزاء وسلوان ، ورضا وراحة بال . قال تعالى : « **ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير** » .

واذا خسر التاجر فى تجارته أو خاب العامل فى سعيه ، أو رسب الطالب فى امتحانه ، أو فات الانسان أى خير يرجوه ، وتذكر ربه وأنه لا يصيب أحدا الا ما كتبه الله له وان يرده بخير فلا راد لفضله . اطمأن قلبه الى أن ما فاته لم يكن له ، والى أنه لو كان له ما فاته ، وفى هذا راحته من الاسترسال فى الهم والحزن ووقاؤه من اليأس والقنوط . قال تعالى : « **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له** » .

واذا أوتى الانسان نعمة وزاده الله بسطه فى الرزق أو العلم أو العافية أو الثراء أو الجاه وتذكر ربه ، وأن هذا الذى ينعم فيه انما هو من فضل الله عليه واحسانه اليه ، اطمأن قلبه الى رحمة الله وكرمه ، وانطلق لسانه

بحمده وشكره ، وشكر النعمة يزيد المنعم كرما واحسانا • قال تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد** » •

واذا وفق الانسان الى طاعة ربه والعمل بما يرضيه ويقرب اليه وتذكر ربه وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأنه انما يجزى العامل على نيته ، وأنه ينظر الى القلوب والسرائر ، لا الى الصور والظواهر • أخلص فى عمله ووجه وجهه الى من يهديه ويجزيه • قال صلى الله عليه وسلم : « **انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى** » •

واذا وقع الانسان فى خطيئة أو اقترف اثما وتذكر ربه وأنه غافر الذنب وقابل التوب ، لم ييأس من رحمة الله ، ووجد السبيل ممهدة للتوبة والانابة ورجاء العفو والمغفرة •

قال تعالى : « **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله** » •

فبذكر الله وصفاته وآيات رحمته وقدرته يحيا الضمير وتستيقظ حاسة الخير وتسكن النفس الى الحقائق ، بهذا يطمئن القلب وتهون الشدة ويستحق الانسان معونة ربه وتوفيقه • وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : « **أنا عند ظن عبدى بى وانا معه حيث يذكرنى** » •

ومن هذا تتبين الحكمة فى أن الله أعد المغفرة والاجر العظيم للذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، وعد أولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، وعد ذكر الله أكبر من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** » وتتبين الحكمة فى الله سبحانه توعد الغافلين عن ذكره ، ونهى عن طاعتهم واتباعهم ، وأمر باجتنابهم والاعراض عنهم فقال عز شأنه : « **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** » وقال سبحانه « **فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا** » وقال جل ثناؤه : « **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين** » •

ذلك لأن الغافل عن ذكر ربه الذى لا يستشعر آياته ولا صفاته فى محنه ولا نعمة ولا فى طاعة ولا معصية يشقى حتى فى النعمة ويضل حتى فى الطاعة ، فان أصابته محنة لم يجد ملجأ ولا مفزعا وتضيق الدنيا فى وجهه ، وتتراكم خواطر الشر والسوء فى عقله ، ويستولى عليه اليأس والقنوط ، مصداق قول الله سبحانه : « **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** » واذا ناله خير استقبله بالاشر والبطر والزهو والغرور وفى غفلة عن ذكر الله يستخدم نعم الله فى معصيته وبهذا يعرض النعمة للزوال • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اذا رأيتم الله يعطى العبد مايحب وهو مقيم على معصيته فان ذلك منه استدراج** ، ثم تلا قوله تعالى : « **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما**

أوتو أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » أى آسفون حزينون ! واذا وفق الى طاعة اغتر بظاهر عمله ونسى أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله الا أن يتغمده الله برحمته ، ويتقبل عمله بقبول حسن · واذا وقع فى معصية استمرأ العصيان وأصر على ما فعل وران على قلبه ما كسبه ·

فمن أراد الله به الخير وفقه الى أن يكون على ذكر من ربه فى كل حالاته فيحيا ضميره ويطمئن قلبه وتستيقظ حاسة الخير فيه · ومن أراد الله به السوء أغفل قلبه عن ذكره فاستسلم لهواجسه ، واستحوذت عليه وساوسه وشكوكه · وكان أمره فرطا أى بعيدا عن الصواب غير واقف عند الحد الذى حده ربه « **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** » ·